في العراق الامريكي الجديد

بغداد الجريحة تحاول النهوض بالفن السينمائي

والبصرة التي اشتهرت بالموسيقى تعاني الخواء في غيابها

بغداد / متابعات :

استقطب الفيلمان التسجيليان العراقيان "قطرات متصلة بيضاء" للمخرج فتحي زين العابدين و"شيء من الانتباه" للمخرج صائب حداد اللذين عرضا الاثنين على شاشة قاعة المسرح الوطني في بغداد اقبالا لافتا من جمهور يفتقد الى الانتاج السينمائي الذي تاثر شانه شان جميع اوجه النشاط الثقافي بالوضع الذي يعيشه العراق.

وقال رياض عبد الحافظ مدير دائرة السينما والمسرح التي نظمت العرض "نسعى من خلال هذه الافلام التي تم انتاجها هذا العام الى اعادة الصلة بين جمهور السينما العراقي والفن السابع الذي شهد سكونا مؤثرا خلال الفترة الماضية".

واكد مديرة هذه الدائرة التابعة لوزارة الثقافة العراقية ان "مظاهر العنف التي تحيط بنا لن تستطيع ان تجمد نشاطنا وابداعنا ورغم الظروف التقنية والحياتية الصعبة التي تواجه اسرة السينما في العراق تمكنا من انتاج الفيلمين هذا العام".

ويسلط فيلم "قطرات متصلة بيضاء" الضوء على الحقبات التاريخية التي تعرض خلالها العراق وتحديدا مدينة بغداد الى الاحتلال وما تركته تلك الفترات من اثار على العراقيين عبر عدة اجيال ليبدا من داخل فصل مدرسي حيث يقدم احد الاساتذة مادة عن تاريخ العراق ابان احتلال المغول لبغداد عام ١٤٥٧.

ويحكي الفيلم الثاني "شيء من الانتباه" معاناة الاطفال من نزلاء دور الايتام والظروف القاسية التي يعانون منها بعد ان فقدوا اسرهم في الحروب التي شهدتها البلاد واصبحوا ضحايا الحروب ومظاهر العنف الانساني والاخطاء الفادحة والطائشة التي دفع هؤلاء الاطفال ثمنها غاليا.

واعتبر المخرج فيلمه "رسالة الى المعنيين لتوجيه اهتمامهم ورعايتهم لهؤلاء الاطفال والتخفيف من معاناتهم الاجتماعية".

يشار الى ان صناعة السينما في العراق تواجه مشاكل تقنية ومادية صعبة بسبب الاضرار التي الحقها الغزو الامريكي في اذار/مارس ٢٠٠٣ بدائرة السينما والمسرح التي فقدت العديد من اجهزتها ومختبراتها الخاصة بصناعة الافلام.

وسعت الدائرة الى اعادة الحياة الى الفن السينمائي عبر هذه المحاولات الانتاجية التي تشكل رغم تواضعها خطوة هامة على طريق احياء السينما بعد ان ارغمت الظروف السائدة اصحاب العديد من صالات العرض في العاصمة بغداد على اغلاقها وتحويلها الى مستودعات او مقاه.

وقال عبد الحافظ ان "الحضور الذي شهدته صالة المسرح الوطني عكس مشاعر الانتصار التي حققها المبدعون العراقيون وهم يقدمون هذه الوثائق التاريخية رغم الظلام والعنف اللذين يغلفان الحياة".

واعتبر المهتمون بالفن السينمائي هذه العروض فرصة هامة وقال احمد عبد الجبار (٢٢ عاما) الطالب في اكاديمية الفنون الجميلة "بعد ان اغلقت صالات العرض ابوابها لم يعد امامنا سوى الحضور الى هذه الصالة لنعوض ما افتقدناه".

كما تسعى دائرة السينما والمسرح الى تشجيع الفنانين العراقيين الشباب للدخول في تجارب سينمائية من خلال تنظيم مهرجانات للافلام السينمائية والوثائقية والقصيرة لاقت اقبالا لافتا.

وكان فيلم "غير صالح للعرض" اول فيلم سينمائي يتم تصويره في بغداد بعد سقوط النظام السابق وشارك فيه عدد من الفنانين العراقيين المعروفين في مقدمتهم يوسف العاني وعواطف السلمان.

وهناك ايضا اعمال لعدد من الفنانين العراقيين المقيمين خارج البلاد بعد احداث اذار/مارس ٢٠٠٣ من بينها فيلم "الكيلو متر صفر" الذي اخرجه الفنان الكردي هونر سليم المقيم في فرنسا.

في سياق متصل دعا عدد من فناني البصرة ومثقفيها الى إعادة إحياء الوجه الفني لهذه المدينة، مؤكدين ان مدينتهم التي اشتهرت على مدى عصور طويلة بالطرب وحب الفن، تعاني الحياة الفنية فيها اليوم من ركود واهمال، مذكرين بفرق مثل (الخشابة) و (الهيوة) و(اغاني المواسم) (الحصاد وجني التمر والصيد) بصفتها تعابير صادقة عن حياة أناس لم يعرفوا من ألوان الحياة غير لون السعادة.

كانت هذه المدينة (التي عرفت بمدينة الحياة والفن والأدب) معهداً لتدريب المطربين والمطربات، وطريق مرور لهم في اتجاه دول الخليج وسائر الدول العربية الاخرى. فقد زارها، أو أقام فيها، مطربون ومطربات لهم فنهم وشهرتهم مثل: صديقة الملاية ووحيدة خليل وأمل خضير وفؤاد سالم ورياض أحمد، وغيرهم من مطربي الأجيال الماضية والحالية.

ويعود انتشار الطرب في البصرة إلى جمال طبيعتها المتمثلة في شط العرب، وبساتين النخيل التي تمتد على شاطئيه، وغابات الأثل الخضر في الزبير التي يؤمها أهالي البصرة في فصل الربيع للنزهة والترويح عن النفس. ويعد جوهر العبد (واسمه الحقيقي جوهر سالم بن كيف العبد) المولود عام ١٨٧٥ في محلة جسر العبيد في البصرة القديمة، من أقدم المطربين الذين وصلتنا أخبارهم. فكان، إلى إجادته إيقاعات الخشابة وإبداعه فيها، يلم بمعظم أطوار الأبوذية والمقامات البصرية. وكان يكتب الشعر الشعبي والشعر الغنائي ويلحن ما يعرف عراقياً بـ (البستات). وكلما دعاه أمير المحمرة الشيخ خزعل، كان يصطحب معه بعض مطربي البصرة ومطرباتها، مثل صديقة الملاية وزهرة خليل وحياة العراقية. وكان الشيخ خزعل معجباً بغنائه وغناء صديقة الملاية. فكانوا يقيمون في ضيافته فترات طويلة في المحمرة،حتى انتهت رحلة حياته الفنية بوفاته في البصرة عام ١٩٢٤. أما المطرب الزبيري خالد الرجيب الذي عرف بإجادته فن الأبوذية بجميع أطوارها والمقامات البصرية، فقد دفعه صوته المميز واتجاهه للغناء الخليجي إلى الهجرة الى الخليج حيث بقي حتى وفاته عام ١٩٧٨, ويعد مطرب (الخشابة) المعروف حميد الياسر، المولود سنة ١٩٢٩ والمعروف بعذوبة الصوت وإجادته المقامات البصرية، واحداً من أشهر مطربي المقام والخشابة على الإطلاق. إذ ظل متربعاً على عرش الغناء البصري حتى وفاته عام ١٩٧٥,

وشكل الشقيقان معتوق وربيع في قرية حمدان التابعة لقضاء أبي الخصيب، جنوب البصرة، فرقة للخشابة كانت من أجمل الفرق الشعبية أداء للأغنيات العراقية والمصرية والكويتية. وراح الناس يفخرون بدعوة فرقتهم في الأعراس والمناسبات الأخرى. وكان لحضورهما افتتاح سينما أطلس في البصرة عام ١٩٦٩، صدى كبيراً في الوسط الفني آنذاك، ومناسبة من الحكومة للاعتراف بفن الخشابة الذي ظل في نظر البعض (فناً دونياً) لا يتناسب وذوق الجمهور.

ويرى مراقبون ان هذه المدينة التي كانت يوماً ما قبلة للحياة والفن، اصبحت اليوم بعد الاحتلال الاميركي في حاجة إلى التذكر، إلى من يخلصها من التطرف الذي صار يعبث بطرقاتها وسككها التي كانت آمنة، إلا من لصّ غير ظريف أو تكفيري ينصب المشانق للعود والربابة والمزمار تحت أفيائها الوارفة.

بوابة الشجن العربي

والحال ان الاحتلال الاميركي الذي وعد العراقيين بعراق جديد يكون نموذجا لشرق اوسط جديد نجح في تحويل آلة العود من احدى صور العشق العربي، تضاهي في روعتها روعة الحب العذري عند العرب، الى صورة مرعبة ومأساوية على يد القتلة والتكفيريين الظلاميين من السنة والشيعة الذين يختلفون في كل شيئ ولكنهم يتفقون في تسويد صورة حياتنا وتكفير وتحريم الفنون والموسيقى والغناء .

لم يتعد صورة العود في العراق الاميركي الجديد تشبه صورته في عراق ما قبل الاحتلال ،التي طبعت آلة العود في الوجدان العربي ، بصوت أوتارها الشجي تسكر العقول وترق لها القلوب، الرفيق والصاحب وسام شرف على صدر العود، ناله عن جدارة واستحقاق، صاحبه العامة، وطلب وده الخاصة، لكنه كان خيارا لأصحاب الألباب، من ذوي الحكمة. ساهم في شرح النظريات الطبية والهارموني، ورافق العلماء من أمثال الكندي والفارابي، أوجز قدامى العرب قيمته في نفع الجسد وتعديل النفسية. حكاية الإنسان الأول ليست سوى لحن عزفته أنامل عواد على أوتار العود ورددت صداه جدران المعابد حيث كان العود أداة من أدوات الطقوس العبادية عند الكهنة.

ويعد ظهور رسومات للعود على جدران المعابد بمثابة دلالة قوية على ارتباطه بالحضارات والممالك القديمة (كان أول ظهور للعود في الحضارة الأكادية في بلاد ما بين النهرين) حسب ما أوضح نصير شمة، عازف العود العراقي، ومؤسس بيت العود العربي، وفي الوقت الذي يتنازع فيه الباحثون حول أول من صنع العود، والتي تتأرجح كفتا ميزانه بين نوح عليه السلام وجشميد ملك الفرس، يتسلل صوت العود الذي كان يضرب به لداود عليه السلام من الأرض التي تحتضن ثالث الحرمين الذي احتفظ بمكانه معلقا في بيت المقدس إلى حين تخريب القدس، في إشارة واضحة لجذور العلاقة التي تربط بين هذه الآلة الوترية وشعوب المنطقة العربية.

لم يكتف العود بمرافقة الحكماء والعلماء بل كان طرف الثنائية مع الفنان في البدايات سواء كان مطربا أو عازفا باعتباره جزءاً يمثل الهوية الثقافية. وفي نوع من التماهي مع الآلة كما وصفه حازم شاهين، أحد العوادين المصريين، (علاقتي بالعود علاقة حسية اشعر أنه يبادلني نفس مشاعري ويشاركني انفعالاتي)، في حين يعتبر شمة علاقته بالعود علاقة تجاوزت الكلام ليشكل لديه يدا ثالثة لا يستغني عنها كالماء والهواء، فيما يمثل احتضان العود عند شربل روحانا، عازف العود اللبناني، علاقة حميمية تشعره برغبة في اجتياح الأوتار من أولها لآخرها، ليعيش ذلك الإحساس الذي يقول عنه (اجتياح أوتار العود يجعلني أحيا بإحساس أنه يعطيني هواء وماء وخبزا وياسمين).

هذه الصحبة مع آلة العود المطواعة للفنانين والعازفين منذ بداياتهم والتي خدمت وجوده وبالرغم من كونها تقليدا توارثته الأجيال، إلا أنها ترجع أيضا لكونها (آلة كاملة تجاري في مساحة صوتها القدرة البشرية)، كما أوضح شمة، في حين سجلت هذه الآلة حضورا مهما ورئيسيا بين آلات التخت الشرقي الذي يعتمد عليها بالدرجة الأولى، الا أنها تجاوزت التخت بآلاته الأربع ليتم تقديم العود ضمن تجارب موسيقية عديدة ليس آخرها المصاهرة بينها وبين الجاز الأميركي فيما كانت المزاوجة عبر أوركسترا مكونة من ٣٠ آلة عود ليتمخض عنها اطلاق الطاقات الكامنة في العود الشرقي يقول نصير شمة (لابد أن تعتاد آذاننا على الجديد، والشجن ليس قاصرا على المتوارث فقط، علينا بناء ذاكرة متجددة والزمن يكفل الاحتفاظ بالجيد واسقاط الرديء بشكل تلقائي).

(رنين العود الدافئ الذي يغلف الصوت البشري ويحتضنه) كما وصف روحانا، وعلى الرغم من تغير الذائقة الفنية لدى المتلقي العربي والذي ساهم في تغييرها ما تروجه وسائل الإعلام عبر ما تبثه من موسيقى وأغان بالكاد يلاحظ فيها وجودا للعود بشكل خاص يجده روحانا قد شكل (مفهوما آخر للتطريب الذي يشكل العود أهم أدواته)، يأتي ذلك في الوقت الذي أصبح فيه مد الجسور هو الصلة الوحيدة التي ينطلق منها المجددون في العود على المستوى التقني أو التعبيري. يقول روحانا (لا أطالب بنسف القديم للخروج عن التقليدي لأن التجديد يأتي عبر التواصل الواعي مع التراث بأسلوب نقدي بناء)، وإلى أن يقتنع التقليدون بحاجة المجددين لفضاءات مفتوحة في التأليف والعزف يظل هناك آخرون ينظرون بطرف خفي إلى التجارب الجديدة كونها خروجا عن المألوف والمتوارث لآلة العود.

النغمات الجديدة التي بدأت تتسلل نحو الأذن العربية لتثير شجنا مختلفا، في محاولة لإعادة بناء الذاكرة العربية، متجاوزة اللحن الثوري العسكري لتصيغ موسيقى ثورية فكرية متجددة بعيدا عن القوالب الجاهزة، يأتي كل ذلك في سياق اطلاق العنان أمام العازفين للتجريب والتعبير بحرية على العود في محاولة لتحريك المياه الراكدة وكسر السكون الذي لف عالم ملك التطريب منذ سنوات مضت بحسب نصير شمة. وبين من يجد في العزف الجيد حدا فاصلا لحمى تصنيفات تأرجحت بين الملك والأخطبوط، يجد شمة أن الألقاب لا تصنع من رداءة الأداء ملكا أو غفيرا لأن (الفيصل بين عازف وآخر الإتقان والجودة وروعة الأداء، وهي التي تصنع عازفا جيدا يملك قدرة على تطويع العود).

صوت العود لغة عشق تركت بصماتها على أوتاره عبر أنامل عازفين ترسخت عند جمهور السميعة تفردت بتواقيع عزفية لا تخطئها الآذان الطريبة، مكنتها من اعتلاء قمة هرم العازفين المهرة من أمثال فريد الأطرش ومحمد القصبجي ورياض السنباطي من مصر وجميل بشير وأبنائه من بعده عمر ومنير من العراق إلى جانب الجيل الحالي الذي يمثله نصير شمة وشربل روحانا ومارسيل خليفة وعبادي الجوهر وأحمد فتحي وغيرهم كثر. قصة العشق مع العود لا يتوقف دور البطولة فيها على العازف بل هناك العاشق المتيم والذي يعده البعض الغريم الوحيد للعازفين العاشقين الذين يتقاسمون لقمة عشقهم لهذه الآلة مع الصانع حيث يبدأ من ورشته رسم ملامح آلة الشجن العربي.

لحن الشجن العربي الذي تعزفه أوتار العود كما كانت ترسمها أنامل محمد فاضل العواد العراقي، أشهر من ارتبط اسمه بصناعة العود العراقي، الذي تفردت بلاد دجلة والفرات بإتقان صناعته. يقول عن ذلك نصير شمة (حب العود عند العراقيين مرتبط بالجينات لذلك تعتبر هذه الصناعة متوارثة وتحافظ عليها عائلات وهبت حياتها للعود وتتعامل معه كأنه وليدها ربما أشهرهم محمد فاضل ومن بعده أبناؤه فائق ويعرب اللذان حافظا على هذه الصناعة)، وفي حين تفرد العراقيون بصناعة الشجن وتصديره من خلال العود (كونهم تميزوا في نظرية الفرس المتحرك ومربط الأوتار من الخلف إلى جانب تفردهم في دوران الآلة. ومن ناحية ثانية فقد كتبوا مقطوعات موسيقية لهذه الآلة وعزفوها بطريقة مختلفة عن المصريين والأتراك مع تأثرهم الأكيد بتلك المدرستين بشكل أو بآخر)، كما أوضح شربل روحانا.

لم تدخر قاهرة المعز واسطنبول مركز الخلافة الإسلامية في العهد التركي جهدا في تعلم أصول الصنعة ليس من باب المنافسة مع العود العراقي وحسب بل للإبقاء على تاريخ آلة هو بمثابة قراءة أخرى لتاريخ الإنسان على الأرض. يقول عجيب نصيف، أحد صانعي العود في مصر، (يعد العود المصري هو الأجود بين الأنواع الموجودة الآن كوننا نحرص جدا على استخدام أحسن الخامات وأنواع الأخشاب بدون زخرفات أو تطعيمات كونهما يؤثران على الصوت الصادر عن العود أثناء العزف)، الوجه الآخر لصناعة العود يطل مع ظهور الأعواد التجارية التي بدأت تنتشر في الأسواق ومدى تأثيرها على تكوين أجيال تجيد العزف على آلة العود الذي لا يعد نصير شمة انتشارها مشكلة ذات أثر، فيما يجد شربل روحانا أن التيارات الموسيقية العالمية تمارس تأثيرا أبلغ من رواج العود التجاري الذي قد يفسر تأثر بعض العازفين بأسلوب الغيتار في العزف. لم تكتف آلة العود التي اتخذت من القداسة معبدا يؤمه هواة الحياة وطالبو السلطنة من أرجاء الدنيا بأن تكون أحد طرفي قصة عشق بل تجاوزت ذلك لتلعب دور الوسيط في قصص الغزل العربي وربما بشكل يختلف عن الذي اعتادته الأذن العربية عبر تغزل الحبيب لتطرب الأذن بغزل فيروزي مشاكس، طالبا ومتودداً لعلي بإطالة العزف ولسان حالها يردد ومعه الملايين (عودك رنان رنة عودك إليّ * عيدها كمان ضلك عيد يا علي* سمعني العود على العالي * عيدها كمان * وعيدها كمان)، يأتي ذلك في وقت حظيت فيه آلة العود بمنزلة ومكانة عند السميعة كما هو حال مسعود ومسعودة التي تحكي أوتار العود قصتهما (مسعودة حبت مسعود - وهو حب عيونها السود - صارت هي تغني له - وهو يدق لها العود).

لماذا يتخلّف المسلمون في الهند؟

براكريتي غوبتا *

يشكل المسلمون في الهند نسبة ١٤,٥٪ من السكان، وهي نسبة كبيرة من حيث عدد السكان، حيث يزيد عددهم عن ١٨٠ مليون شخص في بلد يزيد عدد سكانه عن مليار نسمة. وعدد مسلمي الهند، هو ثاني أكبر معدل للمسلمين في العالم بعد عدد سكان اندونيسيا التي يعيش فيها أكثر من ٢٠٠ مليون مسلم. لكن مسلمي الهند على الرغم من عددهم الكبير، لا يعيشون في أوضاع مريحة. فقد أظهرت دراسة جديدة مقلقة أن المستوى التعليمي للمسلمين الهنود، يكشف عن فجوة كبيرة بين المسلمين وغير المسلمين، ويتطلب تدخلا طارئا. وبغض النظر عن الأسباب، فإنه لا يوجد هناك خلاف حول حقيقة كون المسلمين الهنود اليوم، هم أقل تعليما وأفقر وأقصر عمرا وأقل تمتعا بالضمانات، وأقل صحة من نظرائهم غير المسلمين (هندوس وبوذيين ومسيحيين).

وترسم الإحصاءات صورة قاتمة عن وضع المسلمين المزري. ففي المناطق الريفية هناك ٢٩٪ من المسلمين يحصلون على أقل من ٦ دولارات شهريا مقارنة بـ٢٦٪ لغير المسلمين، وفي المدن فإن الفجوة تزداد حيث تصل نسبة من يحصلون على أقل من ٦ دولارات يوميا إلى ٤٠٪ بين المسلمين، مقابل ٢٢٪ بين غير المسلمين. ويشكل المسلمون العاملون في قطاع الخدمات العامة ٧٪ من عدد العاملين مقابل ١٧٪ لغير المسلمين. و٥٪ في مجال النقل و٤٪ في حقل البنوك وهناك ٢٩ ألف مسلم فقط في الجيش الهندي، البالغ عدده ١,٣ مليون عسكري.

في الوقت نفسه هناك ٣٠٪ من المسلمين الأميين في المدن، مقابل ١٩٪ من غير المسلمين. وهذه الأرقام متناقضة مع تلك التي تخص (التسعمائة مليون هندي الآخرين)، فهم على الرغم من نواقص وعيوب النظام السياسي والاقتصادي تمكنوا من التقدم إلى الأمام. وعدم تقدم المسلمين الهنود إلى الأمام ليس بسبب التمييز ضدهم من قبل الدستور الهندي، أو العراقيل التي تضعها الدولة الهندية، لكن المسلمين الهنود لهم إنجازاتهم: فقد كان ثلاثة من رؤساء الهند من المسلمين (وهذا المنصب يجعل حامله قائدا للقوات المسلحة الهندية، ويعتبر أعلى منصب غير سياسي في الهند) وآخرهم هو عبد الكلام الذي ما زال يحتل منصب الرئاسة. وفي الماضي كان هناك الرئيسان ذاكر حسين وفخر الدين علي أحمد. وكان عبد الكلام وراء تطوير ترسانة الصواريخ الهندية قبل أن يصبح رئيسا للجمهورية، وهو اكثر الأشخاص شعبية بين المواطنين الهنود غير المسلمين.

كذلك فإن من بين المسلمين الهنود، هناك لاعبة التنس الهندية الأولى سانيا ميرزا، وعظيم برمجي أغنى رجل في الهند، والذي يشغل رئاسة شركة (ويبرو)، وهداية الله رئيس القضاة في المحكمة الهندية العليا، والمارشال زهير قائد القوة الجوية الهندية، والممثلون شاه روح خان وامير خان وسلمان خان وسيف علي خان.

لكن قصص النجاح هذه تموه عن الموقع الحقيقي للمسلمين الهنود. اذ يمكن القول عن حق إن أغلبية ساحقة من المسلمين الهنود تتمنى المضي قدما والمشاركة في الرخاء الاقتصادي الناشئ في الهند، ولكنها تواجه عوائق القوى التقليدية والزعامة التي تفتقر الى الرؤية. ويقول زويا حسن استاذ العلوم السياسية في جامعة (جواهرلال نهرو) في دلهي (إن الزعامة السياسية لمسلمي الهند رجعية، وتمثل مزيجا غريبا من المحافظين التقليديين والزعماء الدينيين. ويتعين على المسلمين انفسهم أن يجدوا الاجابات والزعماء الجريئين ذوي الرؤى ممن لديهم مقاربات أكثر تكاملا للبلد، ويمكنهم أن يأخذوا بأيديهم نحو الحداثة. ويحتاج الجامع الى أن ينفصل عن السياسة. ويتعين أن يبقى رمزا مشرقا للدين ومعناه الروحي فحسب، وليس منبرا سياسيا). لقد قسمت الهند عام ١٩٤٧ على اساس مبدأ الفرز الديني، مع تأسيس باكستان، باعتبارها ما يسمى (وطنا للمسلمين الهنود). ومن بين ما يقرب من ٤٠ مليون مسلم في حينه، لم يختر سوى ثمانية ملايين منهم الذهاب الى باكستان، وغادر المتعلمون والأثرياء الى أراض اكثر خصبا، بينما بقي الفقراء وغير المتعلمين في الخلف.

ويتعين على مسلمي الهند أن يطالبوا بتوحيد زعامتهم مع الـ(٩٠٠ مليون هندي آخرين)، وليس فكرة (العزلة الاسلامية) التي تعيدهم الى أغلال القرون الوسطى، وهو ما فعله المسلمون في ولاية كيرالا الهندية الجنوبية، ممن تقدموا على المسلمين الهنود الآخرين في قبول التعليم العلماني الحديث، والتخطيط العائلي والتحول الاجتماعي. كما أن التعليم بينهم أعلى بكثير مقارنة مع نظرائهم في أجزاء أخرى من الهند.

وأظهر إحصاء أجري عام ٢٠٠١ ان معدل التسجيل في المدارس كان ٦٢ في المائة فقط بين المسلمين، بينما كان المعدل لعموم الهند ٧٢ في المائة. ويقول التقرير عن احصاء الهند ٢٠٠١ الذي اعطى نتائج غير مشجعة ان الرجال والنساء من المسلمين هم اقل انجازا بكثير من نظرائهم غير المسلمين، مضيفا انه اذا ما استمرت هذه الفروق في المستقبل فإن نسبة كبيرة من المسلمين، يمكن أن تبعد عن خارطة قوى العمل المتعلمة في الهند. ويعني التعلم الأولي في الهند، ان الشخص يجب أن تكون لديه معرفة أولية بمهارات القراءة والكتابة. وفي عام ٢٠٠١ كان ٥٥ في المائة فقط من الرجال المسلمين في الهند البالغ عددهم ٧١ مليونا، يتمتعون بهذه المهارات بالمقارنة مع ٦٤ في المائة من الرجال غير المسلمين في الهند، ممن يبلغ عددهم ٤٦١ مليوناً. ويعود تخلف المسلمين عموما إلى أن عددا كبيرا من المسلمين أميون ومتخلفون اقتصاديا، وأن زعماءهم غير متوافقين مع تغير الزمن. وفي نواح عديدة يقفون خلف الطوائف الهندية الدنيا.

ولا حاجة بنا إلى القول إن المسلمين يعتبرون أكثر اهتماما بشأن الدين والهوية الدينية، ويفترض انهم يرفضون الحداثة. ويزعم أنهم يفضلون تعليم (المدرسة)، أي التعليم الديني، على التعليم العلماني الحديث، ويرفضون قبول أي تغيير في قواعدهم الشخصية. وهذه تعتبر مؤشرات على رفض الحداثة والانشغال بالهوية الدينية. وقال ظفر الاسلام خان، محرر (ميلي غازيت)، وهي صحيفة تصدر بالانجليزية في نيودلهي وتتوجه الى المسلمين الهنود، ان (الفقر والأمية والتمييز والظلم: كله موجود هناك لخلق خيبة أمل المسلمين). أحمد راشد شروني، عضو المجلس الوطني للأقليات، يروي كيف انه أثار غضب رئيسة وزراء الهند السابقة أنديرا غاندي، خلال نقاش تناول محنة مسلمي الهند. قال شروني لأنديرا غاندي، انها ووالدها حكما الهند لمدة ٢٥ سنة بفضل أصوات الناخبين المسلمين، إلا ان نسبة المسلمين في الخدمة الحكومية تراجعت بصورة منتظمة في وقت تدعي فيه الحكومة انها علمانية. ردت انديرا غاندي، التي كان معروفا عنها تماسكها وبعدها عن الانفعال، قائلة: (لا يمكن ان تضع اللوم كله علينا. السبب الاساسي في هذا التراجع، هو ان المسلمين تخلفوا في التعليم، ويشكلون فقط ٣ في المائة من جملة خريجي الجامعات في الهند). دار هذا الحديث قبل حوالي ٣٥ عاما. ترى، كيف اصبح الوضع الآن بعد مرور كل هذه السنوات؟ يعترف شروني بأنه اصيب بالصدمة لدى معرفته هذا الواقع، وقال انه تعهد بأن تكون مهمة حياته الرئيسية هي محاولة إلحاق المزيد من أطفال المسلمين بالمدارس. هذه المساعي احدثت تغييرا بالفعل في واقع المسلمين، اذ يقول شروني ان فتاة مسلمة واحدة فقط حصلت عام ١٩٧٦ على الدرجة الاولى من كلية اسلامية متوسطة في اوتار براديش، إلا ان هذا العدد ارتفع العام الماضي الى ١٢٠٠, كما ان الطالبة المسلمة ناشين خان تفوقت على كامل الدفعة في كلية العلوم بجامعة بومباي، وحصلت طالبة مسلمة اخرى من بيهار على المرتبة الثانية في امتحان الخدمة المدنية الهندية. إلا ان ذلك يعتبر قطرة في محيط. فالمسلمون لا يزالون متأخرين عن نظرائهم في مجال التعليم، إذ تفصل بينهم والمتوسط القومي في مجال الأمية بين الرجال نسبة ١٠ في المائة، ويشكلون ٢,٣ في المائة فقط من جملة خريجي الكليات. الأمر الأكثر اثارة خطورة، هو نسبة الفارق في التعليم بين الهنديات المسلمات وغير المسلمات.

التعليم وسط البنات: البنات المسلمات يشكلن الفئة الأقل تعليما في المجتمع الهندي، إذ لا تزال نسبة التحاق المسلمات في المدارس متدنية وتبلغ ٤٠,٦ في المائة مقابل ٦٣,٢ في المائة لغير المسلمات. وفي مناطق الريف شمال الهند تبلغ هذه النسبة ١٣,٥ فقط مقارنة بنسبة ٢٣,١ في المائة في المناطق الحضرية في الشمال الهندي. وبصورة عامة تقدر نسبة البنات المسلمات اللائي يكملن ثماني سنوات في مرحلة التعليم العام بأقل من ١٧ في المائة، وتبلغ نسبة المسلمات اللائي يكملن المرحلة الثانوية العليا أقل من ١٠ في المائة. تبلغ هذه النسبة في الشمال ٤,٥ في المائة و٤,٧٥ على التوالي مقارنة بالمتوسط القومي لتعليم البنات الذي يقدر بـ١٧,٨ في المائة و١١,٤ في المائة. اما نسبة الطلاب المسلمين الذين يلتحقون بالمرحلة الثانوية العليا في الريف فتبلغ ١,٥ في المائة وسط البنات و٤,٨ وسط البنين. وتشكل النساء المسلمات الخريجات نسبة تقل عن ١ في المائة.

* صحفي هندي